د. نصرالدين شردال

غابوا في الزّحام

مجموعة قصصيّة

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2025م

الفهـرس

1- القَنَّــاصُ...3

2- المُخالَفة..5

3-الكَراسِي وَالأقْدَام...8

4-لَيْتَني عَانَقْتُهُ...10

5-في حَديقَةِ الْمَقْهَى..14

6-زيارَةٌ في يومٍ مَاطِرٍ..15

7-قطرةُ ضوءٍ مطفأة..17

8-ورْدَةٌ عَلَى قَبْرِ رَجُلٍ حَي..21

9-مِلحُ الطّعَام..23

10-قنّاصُ اللّحظات..25

11-أَنْفَاسٌ ذَابِلَةٌ..28

12-نافِذَةٌ خَضراء...31

13-ضغْطُ الْحُبِّ الْمُرْتَفِع...35

14-هزيمَةٌ بَينَ امرَأتين...37

-1-

القنّـــاص

أوقف القنّاص سيّارته جانب الطّريق، أخرج كرسيًا وطاولةً صغيرةً، صبّ القهوة في فنجانٍ صغيرٍ، وجلس يحتسيها بهدوءٍ، وهو يسرّح نظره في الغابة الّتي تمتدّ على مساحةٍ طويلةٍ، هبّت عليه نسمات رياحٍ منعشةٍ وباردةٍ، وتساقطت أوراق الأشجار تباعًا، فاسترعت انتباهه ورقة صفراء، دارت في الرّيح، ثمّ سقطت على الطّاولة، أخذها، دعكها بين أصابعه، فانبعثت منها رائحة طيبة كرائحة المسك.

رشف آخر رشفة من فنجانه، قام من مكانه، عاد إلى صندوق السّيارة، أخرج العدّة، ونزل إلى الغابة، وبحرصٍ شديدٍ مشى في الممرّ الشّجريّ، ثمّ انعطف يمينًا، صعد هضبة صغيرة، ومشى قليلا إلى أن وصل إلى منبسطٍ تقلّ فيه الأشجار، فرأى سربًا من الحجل الذّهبيّ يحلّق عاليًا في السّماء الصّافية، تتبّعه إلى أن حطّ على أكمةٍ قريبةٍ، وقبل أن يقترب منه طار محلّقًا من جديد...

تبعه كنمرٍ ماهرٍ في تعقب الأثر، وسبقه إلى الجهة الأخرى، اختبأ في شجيرةٍ كثيفة الأغصان، كثيرة الأوراق، جلس ينتظره بفرح وصبر. سينتظر هنا حتّى لو انتهت سحابة يومه وعاد إلى منزله دون فائدة.

سرب الحجل في الأرض المكشوفة يلتقط الحبوب والحشرات الصّغيرة، وهو ينقنق (صوت الحجل البريّ)، يقترب من القنّاص ببطءٍ شديدٍ، وبين الفينة والأخرى يلمع ريشه الذّهبيّ تحت أشعة الشّمس الدّافئة.

الهدف يقترب... الهدف على مرمى حجرٍ... الهدف في المرمى... أصبح الآن قاب قوسين أو أدنى من يديه.

تحسّس القنّاص "الزّناد".

وضع السّرب وسط علامة "التّصويب".

مسح عرق جبينه.

تحسّس "الزّر" مرّة أخرى.

عضّ شفته السّفلى.

وبتركيزٍ شديدٍ أحكم الطّلقة. لكن لا صوت، ولا انفجار أو دخان.

طار سرب الحجل حرّا، وحلّق عاليّا في السّماء الصّافية من جديدٍ.

صرخ القنّاص بصوتٍ عالٍ في الغابة الشّاسعة:

ـ"فعلتها... فعلتها... فعلتها...".

عاد إلى سيّارته المركونة جانب الطّريق، فتح الباب، وجلس خلف المقود، ثمّ ألقى نظرة أخرى على وجه آلة الكاميرا الجميلة وقال بنشوةٍ بالغةٍ:

ـ"يا لها من صورةٍ فوتوغرافيّةٍ فاتنةٍ ونابضةٍ بالحياة!".

وقاد سيّارته بهدوءٍ عائدًا نحو زحمة النّاس والمدينة.

-2-

المُخالفــة

البرد قارسٌ، والرّيح تعوي كالذئاب في الجبال البعيدة، لم تهدأ العاصفة من ساعتين، وهو يحاول أن ينام بعد مساءٍ متعبٍ قضاه في عمله، ساعات العمل الأربعة تبدو له طويلةً ومتعبةً، خاصة إذا كانت في الفترة المسائيّة، أما قبل سنوات، فإنّ عمله كان سهلاً، وكان أحيانا بالإضافة إلى ساعات عمله، يتطوّع للعمل لدى هيئات ومنظمات المجتمع المدنيّ في سبيل تعليم الأطفال ذوي "الاحتياجات الخاصّة"، أما سنوات عمله الأولى الّتي قضاها في العالم القرويّ، فتلك حكاية أخرى!

ثلاثون عامًا من العمل، وبعد سنة، سيكمل السّتين من عمره، سيتقاعد ويرتاح، ولكنّه يخاف من هذا التّقاعد، ذلك الوحش الّذي ينتظره كما ينتظر لص رجلاً هزيلاً في آخر الدّرب.

على الرّغم من تعبه، يجد راحة لا تعوّض مع هؤلاء الأطفال الصّغار، هذا الجيل الجديد، يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنة بعد سنة، وبعد سنة سيجد نفسه خارج الفصل الدراسيّ، خارج المدرسة، خارج الحياة. عزاؤه أنّه أدّى واجبه الوطنيّ والإنسانيّ مرفوع الرّأس، شامخ الجبين... وما زال، مهما يحدث بين الفينة والأخرى...

كان يومًا ممتعًا حقا، لو أنّ ذلك الشّرطيّ الشّاب لم يسجل في حقّه تلك المخالفة: شرح له بكلّ ما أوتي من قوّة وعلم، أنّه ليس على خطأ، ولم يتجاوز الضّوء الأحمر... لكنّ الشّرطيّ أكّد أنّه تجاوزه، وما عليه إلّا أن يطبّق عليه القانون.

أشار إليّه بالتوقف على جانب الطّريق، بأدب وابتسامة عريضة طلب منه الأوراق الشّخصيّة، وأوراق السيّارة، فحصها جيدًا، وقال:

ـ"الأستاذ محمد صبور؟".

ـ"نعم، أنا هو؟".

ابتسم ابتسامة غير مفهومة، وأردف:

ـ"للأسف عندك مخالفة، وأنا آسف على تسجيلها؟".

ـ"لا، أبدًا".

ـ"ربما لم تر الضّوء الأحمر جيدًا، وتجاوزته دون أن تقف".

ـ"لا، قلت لك لم أتجاوزه".

ـ"الأستاذ محمد صبور، أعتذر كثيرًا، إنّي أقوم بواجبي، أرجو أن تساعدني، فأنت تعرف معنى الواجب..."!

حدّق الأستاذ الشّيخ إلى الشّرطيّ الشّاب بحنقٍ وصبرٍ، وقال:

ـ"حسنًا، قم بواجبك إذًا".

نظر الشّرطيّ بأدبٍ وخجلٍ إلى تلك العينين البراقتين، وأصابته دهشة وخوف الأطفال الصّغار، وباغتته ذكريات وأحاسيس شتى، تماسك وقال:

ـ"لن تؤدي المخالفة الآن، سيأتيك الإشعار إلى عنوانك المدّون في البطاقة الشّخصيّة"!

إنّها نهاية اليوم، وغدًا سيعمل صباحًا، لن يناقش معه أكثر، تسلّم منه أوراقه، ابتسم الشّرطيّ مرّة أخرى في خجل، ونظر إلى صفّ السّيارات الطّويل، حاول أن يقول للشيخ شيئًا، لكنّه لم يلق له بالًا، ضغط على دواسة البنزين وانطلق.

بعد يوم متعبٍ؛ ها هو يحاول أن ينام، لكن شخصًا ما طرق عليه الباب طرقا خفيفًا، ربما للمرة الرّابعة.

تخبره زوجته أنّ شخصًا ما في الباب، البرد قارسٌ، والرّيح تزمجر في الخارج، يقوم من الفراش بتثاقلٍ، يفتح الباب، فيرى شابًا بلباسٍ رياضيٍّ ينزل الأدراج في خفةٍ ونشاطٍ. وما هي إلّا هنيهةٌ حتّى سمع هدير محرك سيّارته.

ـ"يا لسرعة هذا الزّمان وأهله".

وهو يحاول الرّجوع إلى داخل البيت، تنبّه لباقة وردٍ يانعةٍ على عتبة الدّار، حملها ودخل، فتح الكيس ليضع الورود في المزهريّة، فوجد رسالة وثلاث ورقات مالية، تساوي ثمن المخالفة،

فتح الرّسالة وقرأ:

"أستاذي العزيز، تقبل منّي هذه الهدية البسيطة، ومعها مبلغ المخالفة الّتي دونتها في حقّك... لقد كنت نعم القدوة، ونعم الأستاذ.. تلميذك السّابق: ك، ن"

مع شكري واعتذاري.

طوى الرّسالة بلطفٍ، وقال في نفسه:

ـ"ربما لم أر الضّوء الأحمر، العتب على النّظارتين".

والتمع في عينيه بريق دمعتين، وارتسمت على شفتيه علامة ابتسامة.

وضع النّظارتين، وأطلّ من النّافذة على نهاية الشّارع، فلم ير إلا الأضواء الحمراء والزّحام.

-3-

الكَراسي وَالأقدام

تشرق الشّمس كعادتها كلّ صباح، فيأتي النّاس إلى المقهى، وتأتي قبله القطّة الصّغيرة فتتمسّح بالكراسي والأقدام، تشمّ رائحته، ينظر إليها وتنظر إليه، يناديها:

ـ "تعالي، تعالي...".

فتأتي إليه طائعة فرحةً، تتمسح بأقدامه، وتدخل بينهما في جلباب الصّوف، يربت عليها، وهي تلعب بذيلها كالأفعى، يأخذ من فطوره قطعتين من مربى الحليب، ويضعهما لها قرب رجليه، يشرب القهوة المرّة بلا سكر، يغمس قطعة الخبز الصّغيرة في صحن الزّيت الصّغير، ويأكل حبات الزّيتون السّوداء بنهم الطّيور، وهو يقرأ الجريدة أو يحدّق صوب التّلفاز في الجدار ولا يرى تفاصيل الصّور المتحركة... يطلب من النّادل أن يزيد من إيقاع الصّوت، لتغني فيروز بصوتها الشّجي لصباحات الرّبيع الجميلة.

يدخن السّيجارة تلوى الأخرى بشراهة الشّباب المدمنين، إلى أن تملأ المنفضة بالأعقاب المدعوكة في الرّماد.

أقول له:

ـ"رويدك أ البقالي".

يحدّق صوبي، ويجيب مبتسمًا:

ـ"الأستاذ... لم يبق لي ما أحزن عليه، لا صحة لا مال".

وبعد ساعتين، يؤدي الثّمن للنادل، ويخرج من باب المقهى، ينزل الأدراج ببطء شديد، ينعطف يمينًا حيث حديقة المقهى، وينصرف مترعًا بالكبرياء القديم والرّضى النّادر، بينما القطة تنزوي وحيدة خلف باب الحديقة عند حوض ورود حمراء هانئةٍ وهادئةٍ.

تشرق الشّمس كعادتها كلّ صباح.

لكنّها لم تشرق هذا الصّباح، حجبتها الغيوم الكثيفة الّتي تتكدّس في سماء المدينة ولا تمطر.

صباحٌ مضبّبٌ ومثقلٌ بالحسرة والأسى، ومع ذلك، دخل المقهى أناسٌ، وانصرف آخرون، مرّت ساعة، مرّت ساعتان، لكنّه لم يأتِ.

تجمّدت دمعةٌ حارةٌ في عين النّادل، ولم يعلُ صوت فيروز على ضجيج المقهى الخفيف، وظلّت الطّاولة في الزّاوية شاغرة، والقطّة تذهب وتجيء، وهي تتمسح بالكراسي والأقدام...

ومع منتصف النّهار، مرّت جنازةٌ صغيرة بجانب المقهى...

انسلّت القطّة الصّغيرة من بين الكراسي، وخرجت من باب المقهى، قفزت على الأدراج بسرعة، توقفت، وظلّت وحيدة تموء مواءً متواصلاً، تراوح بين باب المقهى وباب الحديقة، وتنظر إلى النّادل الدّامع العينين، وفي لحظة تعبٍ ويأسٍ، تبعت الجنازة نحو المقبرة، وغابت بين الأقدام في زحام المدينة إلى الأبد!

-4-

لَيتني عانَقته

تنفس الصّباح، وأطلّت الشّمس من فوق باب المدينة القديمة، فتحلّق جمعٌ من السّياح الأجانب حول دليلهم السّياحيّ، وهم "مدججون بأحدث الكاميرات لاصطياد أكبر عدد ممكن من الطّلاسم والتّحف المحليّة قبل حلول العشيّة، وكان الدّليل السيّاحيّ يقول:

ـ "هذا بناءٌ أندلسيٌّ أصيلٌ، بناه الموريسكيون الّذين خرجوا من الأندلس بعد نجاتهم من محاكم التّفتيش... خشب، برونز، فضة وذهب..".

قبل أن يكمل كلامه هجم عليهم شابٌّ شبه عارٍ، له عينان حادتان، لحيةٌ شعثاء، وشعرٌ منفوشٌ...

صاح رجلٌ من بعيدٍ:

ـ "إياك... إياك... إياك...".

فتداخل بعضهم في بعض خوفًا من الشّاب، لكنّه وقف أمامهم بخجلٍ شديدٍ، فتح ذراعيه في الهواء معانقًا الفراغ، وأغمض عينيه في انتظار من يعانقه!

ظلّ كذلك، إلى أن وضع شرطيٌّ من شرطة السّياحة الأغلال في يديه، وحين فتح عينيه، نظر صوبي، وما لبث أن ركّز النّظر، نظرتُ إليه بدوري: العينان الذكيتان، اللّامعتان، فيهما بريق النّجوم، وشرارة الحرمان، وأشياءٌ كثيرةٌ أعرفها جيّدًا منذ زمان.

قاده الشّرطيّ بعيدًا.

.....

أتذكره الآن جيدًا قبل خمس سنوات، ذات سنةٍ دراسيّةٍ عصيبةٍ، كان تلميذًا حاد الذّكاء، سريع البديهة، وقبل نهاية السّنة عفى عن لحيته الشّابة، وشعره الأسود الكثيف، وأصبح أكثر عزلةً وصمتًا، وأحيانًا كان يصدر منه كلام غير مفهوم!!!

بعد نهاية حصّة دراسيّة من شهر يوليوز، خرج زملاؤه، وبقي في مكانه، كنت مشغولةً بترتيب بعض الأوراق والوثائق على مكتبي. وقف قبالتي، حدّق إليّ بعينين لمّاعتين، وانسكبت منهما دمعتين لم أر مثلهما في حياتي قطّ.

كان التّلاميذ على الباب ومن وراء زجاج الفصل الدّراسيّ ينظرون إلينا.

(هل وقع في حبيّ، ويريد أن يعترف لي بذلك! وما أدراني، إنّي شابة جميلة، وأصغر أستاذة بالمؤسسة الّتي عُيّنت فيها حديثًا، ولا أكبر بعض تلامذتي إلّا بسنواتٍ قليلةٍ، خاصة أولئك الّذين تعثّروا في دراستهم، أو التحقوا بها متأخرين).

ـ "تفضل، أمين، ما بك؟".

ظلّ صامتًا، والدّموع تنهمر من عينيه، يريد أن يقول شيئا، لكنّ اللّغة الحرون لا تسعفه في ذلك، تكاد روحه تخرج، والدّماء على وشك أن تصرخ في عروقه...

وأخيرًا نطق بكلمةٍ حنونةٍ وقاسيةٍ:

ـ "أمي...".

ـ "كيف حالها، هل هي بخير؟".

ـ "ماتت... !!!".

أحسست أنّ خنجرًا حادًا انغرس في قلبي وقلبه في لحظةٍ واحدةٍ.

(ليس الحبّ وحده الذي يوجع القلوب، الموت يفعل أكثر من ذلك).

كأنّ آلاف الأبواب صفّقت، وأغلقت في وجهه مرّةً واحدةً.

كلّ الصّدور والأحضان عنده غدت ضيّقة ضيّقة.

وتذكرت أمي الرّاحلة، وسالت دموعي حارّة وحارقة.

ثمّ خرج من الفصل الدّراسيّ، كمن خرج من الوجود ودخل في العدم من أبوابه الواسعة إلى الأبد.

ليتني عانقته حينها، ليتني ضممته إلى حضني حتّى لا يضيع، لكنّ القيود والعيون خلف الزّجاج

منعتني من ذلك.

.....

لحقت بالشّرطيّ إلى آخر الممرّ، وطلبت منه أن يخلي سبيله، فردّ غاضبًا:

ـ"إنّه يعانق النّاس يا أستاذة، ودائمًا ما يجعلنا في حرج".

وبعد برهةٍ، أطلق الشّرطيّ سراحه، نظر إليّ بابتسامةٍ كنجمةٍ مضيئةٍ بين أشجارٍ كثيفةٍ في غابةٍ من ظلام، ومشى مشية طفلٍ راقصٍ، ثمّ أطلق ضحكةً عاليّةً، وغاب في الزّحام كغريقٍ ضاع بين تتابعٍ الأمواج والرّياح الهوجاء!

-5-

في حَديقة المَقهى

لبس لباسًا عاديًا على غير عادته، ونزل من الطّابق الثّاني إلى حديقة المقهى، فاليوم يوم أحد، يرتاح فيه من المرضى والعمليات الجراحيّة وأعباء المستشفى، فهو لم يهتم بحديقة مقهاه منذ مدة طويلة بسبب عمله وأسفاره، وها قد تطاولت أغصان الأشجار والأعشاب الضّارة، وتغيّرت أشكال أحواض الورود المتفتحة.

حمل مقصه الحاد ومعوله الصّغير، لبس حذاءه المطاطيّ، وطلب من النّادل أن يأتيه بقطعة مربى الحليب لقطته الصّغيرة الّتي نزلت معه وهي تموء، ووضع قطعة المربى في صحنٍ صغيرٍ، وقدّمه لها، فشرعت في التهامها وهو يداعبها...

دخل الحديقة الصّغيرة الّتي ليس بينها وبين المقهى حدود، وشرع يقصّ الأغصان المشرئبة نحو الأعلى، وحفر حفرًا جديدة، وردّ التّراب على جذوع بعض الشّجيرات، وكانت حينها شمس الرّبيع ترسل أول أشعتها الصّافية والدّافئة في صباح ذلك اليوم الجديد.

وبينما هو منهمكٌ في عمله، وقفت سيّارة أمام باب المقهى، ونزلت منها عائلة صغيرة، وجلست إلى أقرب طاولة، كانت العائلة تتكوّن من أب وأم وطفلة، وجاء النّادل بأدبٍ، فطلبوا فطورهم الصّباحيّ لأول مرّة في هذا المقهى الجميل، وبعدها سيتابعون سفرهم في اتّجاه مدينة أخرى.

بعد لحظاتٍ جاء النّادل بالفطور، وشرعوا يأكلون بنهم بسبب السّفر الطّويل، وكانت في عيونهم آثار التّعب والنّوم.

كان الطّبيب العجوز قد انتهى من حفر بعض الحفر، وغرس فيها بعض شتائلالورود الجديدة، وسرعان ما تمكن منه التّعب والإجهاد، فجلس على أقرب طاولة إلى أفراد العائلة الصّغيرة، وهم يتناولون فطورهم وينظرون إليه بين الفينة والأخرى.

قالت الأمّ الحنون بهمسٍ:

ـ"أيّ ظروفٍ قاسيّةٍ هذه الّتي تجعل رجلاً عجوزًا يتعب كلّ هذا التّعب؟".

وقالت الطّفلة الصّغيرة ذات العينين الواسعتين:

ـ""إنّه يشبه جدي، انظروا إنّه متعب، وربما جائعٌ، ينبغي أن نعطيه قطعة من خبز الشّعير مغموسةً في الزّيت، وكأس شاي".

فتذكر أب الطّفلة أباه الشّيخ وراء المدينة في قريته البعيدة، وحاول دعوة العجوز الّذي كان حينها يرتاح وينظر إلى الحديقة بهدوء تام، ثمّ رأى ذلك غير مناسب.

وبعد برهة من النّظر في بعضهم، حمل الأب صحن الزّيت الصّغير، وقطعة من خبز الشّعير وكأس شاي، وحملت الطّفلة الصّغيرة كأس الماء، وتبعت أباها في هدوء. ووضعا له الفطور على الطّاولّة.

وقف النّادل مصدومًا دون أن يفعل أو يقول شيئًا، وابتسم الطّبيب العجوز ابتسامة طمأنينة ورضىً، وأمسك الكأس من يد الطفلة الجميلة وقبّل يدها، شكرهما، وشرب كأس الماء مستلذًا عذوبته بعد التّعب والإرهاق، وبعد دقيقتين عاد إلى حُفرِه من جديد وهو يبتسم.

نادى على النّادل، وقف معه برهة، وهو يساعده في ربط سياجٍ صغيرٍ، وقال له كلامًا خفيفًا، وانصرف كلّ واحد منهما إلى عمله.

أنهت العائلة فطورها، وتوّجه الأب إلى النّادل، ولم يفهم لماذا لم يقبل منه أداء وجبة الفطور، وحينما أصرّ على أداء الثّمن، أشار النّادل إلى العجوز الّذي كان منحنيًا على شجيرة وردٍ يقطّع بعض أغصانها اليابسة، وقال:

ـ"ذلك صاحب المقهى، وقد أمرني بألا آخذ منكم درهمًا".

ابتسم الأب، ووضع في جيب النّادل بعض الدريهمات.

وحين أنهى العجوز قطع الأغصان اليابسة، وقف لحظةً، ثمّ قطف وردةً حمراء، وعاد بها إلى طاولة العائلة، فوجدها فارغة، ألقى نظرةً إلى رصيف المقهى، كان الأب قد أدار المفتاح في المحرك، ضغط على دوّاسة البنزين، فتحركت السيّارة...

تقدّم الطّبيب العجوز إلى رصيف المقهى مسرعًا، وهو يحمل الوردة الحمراء، بينما الطّفلة في المقعد الخلفيّ تنظر إلى العجوز بفرح ظاهرٍ، وتحاول أن توقف أباها الّذي ركّز على السّياقة، واندمج في الطّريق دون أن ينتبه لها، ثمّ ابتسمت ابتسامة مشرقة وحزينة، ولوّحت له مودعة من وراء الزّجاج.

أخرج العجوز منديلاً ورقيا من جيبه، ومسح دموعه، وظلّ يلوّح بالوردة الحمراء إلى أن غابت السيّارة في زحام الشّارع الطّويل.

-6-

زيـارةٌ في يومٍ ماطرٍ

جاءت المرأة القرويّة من الرّيف البعيد في صبيحة يوم ماطرٍ وعاصفٍ، وصلت إلى باب الثّانويّة، وظلّت واقفةً على بابها إلى أن أدخلها الحارس، ثمّ أوصلها إلى الإدارة بعد أن قطعا ممرّا صغيرًا على جانبيه شجيراتٌ وأحواضُ زهورٍ مختلفة الألوان.

أشار الحارس إلى باب المدير، وأمرها أن تنتظر قليلاً.

رأيت قبّعتها المصنوعة من القشّ والدّوم، وحذاءها البلاستيكيّ الّذي لا يزال محتفظًا ببقايا روث الأبقار، ووحل الحقول الّتي قطعتها في سيرها الطّويل قبل وصولها إلى محطّة الحافلة، وبعد ساعتين ونصف قذفت بها إلى زحام وضجيج المدينة.

لم أتحسّس يدها، لكنّي أعرف أنّها صلبة ومتشقّقة بتراب البلد.

لم أشم رائحتها، لكنّي تذكرت رائحة النّعناع البريّ، واللّبن، والتّوابل، والّزعتر الجبليّ...

نادى عليها المدير، وعلى الأرض وضعت حقيبتها الّتي لم تكن إلا كيسًا كبيرًا يحوي بعض الأكل ولباسًا شتويّا!

دخلتُ إلى المكتب، وتناهى إلى مسمعي:

ـ"أليس لك هاتفٌ تتصلين به؟".

ـ"لا، يا سيّدي... خفت عليه من البرد... لم أره منذ شهر".

خرج المدير، ونادى على مساعده الإداريّ، تبادلا كلامًا خفيفًا، ثمّ رجع حيث تركها حاسرة الرّأس في خجلٍ قرويٍّ صبوحٍ.

بعد لحظةٍ، عاد المساعد الإداريّ بابنها الّذي كان منغمسًا بحماسٍ كبيرٍ في حصّة أستاذ مادة الرّياضيات، وقد بدا خائفًا متوترًا من دعوته إلى الإدارة، فهو مجتهدٌ وخلوقٌ، ولا يفتعل

المشاكل والمخالفات.

وصل للباب، ولمّا رأى أمّه قفز فرحًا، قبّل يدها... فأخرجت معطفًا شتويا من الحقيبة، وألبسته إياه، ثمّ حضنته بقوّةٍ وحنانٍ، قائلةً:

ـ"آه على ولدي الحبيب يموت من الجوع والبرد في بلاد النّاس".

عاد المساعد الإداريّ إلى عمله، والمدير إلى مكتبه، بعد أن قال:

ـ"اللّهم اغفر لنا من تعب الوالدين".

ومشى تلميذنا العزيز والمجتهد، رفقة أمّه في الممرّ المعشوشب على الجانبين، مرفوع الرّأس، فرِحًا وطرِبًا، ولمّا وصلا، فتح لهما الحارس الباب.

كنت أتابع المشهد من خلف زجاج قاعة الأساتذة، وانسكبت من عينيّ دموعٌ لست أدري أهي دموع فرحٍ وفخرٍ، أم دموع حزنٍ وأسىً؟

وغابت عنّي المرأة وابنها بين زحام التّلاميذ.

ومرّة، قبل عشرين عامًا، في صباحٍ ماطرٍ وعاصفٍ مثل هذا الصّباح، زارتني أمّي في ثانوية من ثانويات هذه المدينة الباردة القلب، وحملت لي الحبّ والدّفء والغذاء!!!

-7-

قَطرة ضوءٍ مُطفأة

أوقفت سيّارتي جانب الطّريق، بسبب عطبٍ تقنيٍّ مفاجئٍ في محركها، وترجّلت على الرّصيف لأنتظر سيّارة أجرة توصلني إلى كليّة الآداب قبل بدْء محاضرتي الأولى لطلبة الدّراسات العليا لهذا الموسم الجديد، لكنّي أحجمت عن فكرة سيّارة الأجرة، وقرّرت أن أتمشى قليلا ما دامت الكّليّة قريبة والوقت يسمح بذلك.

رأيت بعد بضع خطوات على رصيف الحيّ الصّناعيّ المزدحم، حصى ناتئًا، وعلى الجدران بقايا إعلانات ورقيّة لطلب المزيد من الخادمات، كان الجوّ دكنًا، والأشجار واقفة ترتدي ثوب الحداد، غيومٌ كثيرة في الأفق، ورياحٌ عاصفةٌ تولول كامرأة ثكلى، وتكنس أوراق الخريف المتساقطة في هذا الصّباح البارد...

قطعت الشّارع الطّويل، وسط العاملات اللاّتي بدأن ينزلن من حافلات نقل المستخدمات، وقد أتين باكرًا من الأحياء الهامشيّة للمدينة الموحشة والزّاحفة على كلّ أخضرٍ جميلٍ.

قطعت الشّارع أتجنب هذه، وتتجاوزني تلك، أفسح لهنّ الطّريق، وهنّ ينتظمن مسرعاتٍ إلى صفوف الدّخول.

وأنا أتقدم بخطواتٍ بطيئةٍ بين الأجساد الضّامرة انكشف لي وجهٌ قمريٌّ لشابةٍ نحيلةٍ في مقتبل الحلم، تعلوه بسمةٌ مشرقةٌ يفتر عنها ثغرها الحلو الصّبوح، وفي عينيها حزن قديم (أجمل ما يكون الحزن في العينين)، وما يشبه جمرة حمراء متقدة في مدمعيها.

"وقطرةٌ من مطر الخريف

ترقد في ظلال جفنها

والنّفس المستعجل الخفيف

يشهق من شفتيها..."(1)

(1) من شعر صلاح عبدالصبور

نظَرت إليّ، ونظرْت إليها، توقف الوقت في لحظة. ثمّ عاود إيقاعه، وبسرعة البرق أطرقت عيني أرضًا، حاولت تجنّبها، انعطفت نحو اليمين، فانعطفتْ، ثمّ نحو الشّمال فتمايلتْ معي، ومال عنقها النّحيل كعنق فرسٍ شاميةٍ يثقلها الإجهاد والشّوق للديار، وقفت فاسحًا لها الطّريق لتمرّ، لكنّها وقفتْ، وقد صبغ الحياء بياضها كما صبغ اللّجين العسجد، وقالت متنهدة:

ـ"أهلاً أستاذ".

ومدّت يدها في خجلٍ للسلام، سلّمت عليها في ذهول، ابتسمت لي، وأردفت:

ـ"ألم تتذكرني يا أستاذ؟".

نظرت إليها هنيهة، ورحت أستجدي الذّاكرة استرجاعًا للوجوه الّتي عبرتها، خمنت أنّها درست عندي في التّعليم الثّانويّ أو في سنواتي الأولى بالجامعة، لكنّي لم أتذكرها، ولكي أتجاوز الموقف الّذي يحدث لي أحيانًا مع تلامذتي وطلبتي القدامى ـــ أغلبهم اليوم في مختلف الوظائف والمهن ـــ أطلب منهم تذكيري بالاسم، فتذكر اسمهم الشّخصيّ يذكّرني باسمهم العائليّ وذكرياتي معهم.

ـ"عفوًا، ذكّريني بالاسم":

ـ"نضال الـــ...."

ـ"هل نضال اليوسفي؟".

ـ"نعم أستاذي، أنا هي بالضّبط".

ـ"نعم، تذكرتك".

تذكرت تلك التّلميذة الفقيرة النّجيبة، تلك الّتي كانت تجلس على الطّاولة الأولى من الصّف الثّاني من جهة القلب، وهي ترفع أصبعها في خجلٍ وذكاءٍ حادٍ لتصطاد الأسئلة وتجيب هي الأولى... ومن عادتها أن تلبس صبيحة كلّ جمعة جلبابًا أحمر، فتظهر كوردة منداةٍ بالطّل، أو كحبّة الكرز على كعكة عيد الميلاد، تلك المسحة القرويّة في الوجه الصّبوح المتورّد بالفتوة والصّبا، والعينان المشعتان الواسعتان بالحلم، تقولان للمرض والكسل والعجز تنحى فيتنحى، ذلك الصّوت الفيروزيّ وهو يتهجّى القصص القصيرة والقصائد كلحنٍ عاطفيٍّ في أغنيّة فارسيّة، لقد كانت خيط نور في عاصفة معتمةٍ، وقطرة ضوءٍ في نفقٍ مظلمٍ... درست عندي في الثّانوية التّأهيليّة، الثّانوية الّتي كان يأتي إليها التّلاميذ الفقراء من قرى بعيدة، من أحزمة الفقر

والجريمة المحاطة بالمدينة... أتذكر تلك السّنوات الحماسيّة من شبابي وعهدي الأول بالتّعليم بكثير من الفخر والاعتزاز، أتذكر شبابي ويومي الموزّع بين الثّانوية والجامعة، أدرس وأعمل صباحًا، وفي المساء ألتحق بالجامعة لأتعلّم من أساتذتي، أتذكر تلامذتي، أتذكرهم جميعا بتلك الوجوه المشرقة المتلألئة والمتطلّعة إلى أفق أفضل، ولا أتذكرهم بالأسماء...

وأتذكر الآن بكثيرٍ من المرارة والأسى يوم نودي عليّ لتقديم شهادة التّفوق لتلميذةٍ نجيبةٍ في حفلٍ بهيجٍ حضره الوجهاء والفقراء، نودي عليّ إلى المنصّة، أمسكت مكبّر الصّوت وقلت:

ـ"أيّها السّادة الكرام، ما أنا إلّا أستاذٌ من أساتذتها، أترك هذا الشّرف، شرف تقديم جائزة التّفوّق الأولى بمؤسستنا لأمها أو أبيها...".

فهمس أحدهم في أذني بسرعة:

ـ"قدّم لها الجائزة، لقد اختارتك أنت، إنّها يتيمةٌ يا أستاذ!).

وفي غمرة ذهولي وذكرياتي.... أيقظني صوتها الكسير:

ـ"كيف حالك مع العمل؟".

ـ"بخير، شكرًا لك".

ـ"أين وصلت في دراستك يا نضال؟".

ـ"إلى الباب المسدود".

وأشارت إلى صفّ النّساء الطّويل على باب معمل النّسيج الّذي بدا أشبه بباب سجنٍ قديمٍ.

استغربت قائلا:

ـ"كيف؟ لقد كنت الأولى في فصلك، في المؤسسة كلّها، فلماذا لم تكملي دراستك؟".

ـ"والله ما تكاسلت أو تقاعست قطّ، لكنّ..."

وقبل أن تكمل كلامها وتنصرف في أدبٍ وصمتٍ، رأيت في عينيها دموعًا كمطر الخريف على ورقة عنبٍ صفراء في شجيرة من شجيرات بساتين مدينة "الخليل":

:

:

بقيت واقفًا ومتصلّبًا كعمود كهرباءٍ، ومشت هي ببطءٍ كمن يمشي في جنازة حبيبٍ عزيزٍ نحو الصّف الطّويل، وكان حارس الباب على وشك إغلاقه وهو يصيح في وجه المتأخرات الهزيلات:

ـ"بسرعة، بسرعة...".

أسرعت نحو الباب، هبّت الرّيح من الشّرق، وارتعدت أغصان الأشجار على جانبي الشّارع، وتحركت الغيوم الكثيرة في الأفق، وتكوّرت أوراق الخريف المتساقطة من ليلة أمس، ومضغت الرّيح الجائعة خصلات شعرها الحريريّ المتلولب إلى الخلف، وتصاعدت أفواه الآلات بحمحمة الصّهيل الجهنميّ دون توقفٍ.

بقيت واقفًا متخشّبًا ومتصلّبًا تحت رذاذ المطر كعمود كهرباءٍ بلا مصباح، أحدّق صوب قطرة الضّوء المطفأة، أشيّعها بنظرةٍ مريرةٍ أخيرةٍ، وهي تضع رجليها في فم الوحش الّذي يبتلعها من الصّباح إلى المساء مقابل أجرٍ زهيدٍ.

-8-

وَردةٌ عَلى قَبر رَجلٍ حَي

نزلت صاحبة المقهى من سيّارتها الفارهة قبالة المقهى، وهي مستغرقة في مكالمة هاتفيّة غاضبة، وفاح عطرها المدوّخ في الأرجاء، كنت جالسًا في باحة المقهى الممتدة إلى طرف حديقتها الصّغيرة أشرب قهوتي الصّباحيّة، وأتأمل في الحديقة الصّغيرة الغنّاء قبل انصرافي إلى العمل كعادتي كلّ صباح.

أشارت إلى مساعدها، فتقدّم نحوها ملبيا، تبادلا كلاما خفيفا، ثمّ استغرقت مرّة أخرى في مكالمتها الهاتفيّة...

أشار المساعد إلى سائق الآلة الجرّافة الّتي ظهرت فجأة، وسرعان ما ضغط على دواسة البنزين، وقبل أن يتقدّم الوحش الحديديّ نحو جسد الحديقة الخضراء، كان الرّجل ذو البذلة الخضراء قد انقضّ بمقصه الطّويل على أعناق الورود الحمراء واحدةً واحدة، ونسّقها بخبرة البائعين في متاجر الورود والزّهور أيام الأعياد والمناسبات، لفّها وحملها كطفلة صغيرة نائمة على ساعده الأيسر، أوراقها الخضراء ما تزال تحتفظ بندى الصّباح، لكنّها ذبلت لتوّها، وأصبحتطيّعة كجفون نساءٍ أسهرنَ عيونهنّ في حفظ الهوى والذّكريات، تقدّم بها نحو صاحبة المقهى، فتحت له الباب الخلفيّ، وضع جثث الورود، وانصرف عابسًا لا طعم لصباحه.

بقيت في مكاني أشيّع الحديقة المقتولة، الهدير يحرّك الكأس على الطّاولة، والغبار يعكّر صفو الماء المشتهى، وأنا أنظر إلى السيّدة بمنتهى الهدوء والحنق، وبلباقتها المصطنعة، استلّت وردة من الباقة الطّرية، واتجهت نحوي، وضعتها على طاولتي، كمن يضع وردة على قبر ميت، وأتبعتها بابتسامةٍ صفراء لا طعم لها، وقالت:

ـ"نعتذر لزبوننا الكريم عن الإزعاج النّاتج عن هذه الأشغال".

فقلتُ مازحًا:

ـ"أخذت الحديقة مقابل وردة واحدة".

وأردفتُ بصوت متغنجٍ:

ـ"وردةٌ واحدةٌ خيرٌ من العدم والغبار".

وغنّيت في نفسي مع فيروز بملء الأسى والشّجن:

((شي ما بينتسى

أخذت الحبّ، وتركت الأسى))

في رمشه عين أصبح المقهى أرضًا جرداء بلا حديقة، فقد حملوا بقايا الحديقة في شاحنةٍ قديمةٍ، واتجهوا بها إلى مزبلة خارج المدينة.

وفي اللّيلة التّالية، سمعت أصواتًا غريبة قرب المقهى، ومع توالي اللّيالي كنت أسمع أصوات البنائين والمهندسين، وهم يسارعون اللّيالي ويدارون السّلطات من أجل إتمام البناية الجديدة... وبعد شهر كتبوا على واجهتها بخطٍّ جذابٍ ومضاءٍ:

(مرحبا بزبنائنا الكرام في ملهى الورود الحمراء)

انتصبت البناية الكبيرة الجديدة شامخة كتمثال أبي الهول، وحجبت عنّا الهواء والشّمس، وضاق الصّدر كما تضيق المدينة يوما بعد يوم بالبناء والزّحام.

-9-

مِلح الطّعام

كان الهدوء يخيّم على الشّارع العام، إلى أن سمع في الأرجاء بوق سيّارة، ثمّ صوت اصطدام؛ اصطدمت سيّارة بسيّارة أخرى توقفت فجأة وسط الطّريق.

نزل شاب من السيّارة الأولى، ونزل شاب من السيّارة الأخرى، وتبادلا كلاما بغضبٍ وصوتٍ مرتفعٍ، وسرعان ما أمسك كلّ واحدٍ منهما برقبة الآخر، فتدخل بينهما بعض سكان الحي، ولم يتوصّلوا إلى حلّ يرضيهما معاً، ثمّ انصرفوا إلى أعمالهم غير عابئين بهما.

ـ"أنت الّذي على خطأ".

ـ"بل أنت".

ـ"فلتأتي شرطة السّير".

ـ"لا بدّ من توقيع المحضر".

ووقفوا تحت الشّمس الّتي بدأت تطلع في الأفق رويدا رويدا في هذا اليوم السّاخن من بداية فصل الصّيف.

ومن نافذة بيتها في الطّابق العلوي، أطلت المرأة الّتي استيقظت باكرًا، وذهب زوجها إلى العمل، وأبناؤها إلى المدرسة، بعد أن غسلت الأواني، ورتّبت الأثاث، وعطّرت الدار، وكانت تستعد لحظة سماعها الصّراخ لإعداد الغداء، فسرقت النّظر من نافذة الصّالة، وتابعت المشهد قليلا، ثمّ انصرفت إلى المطبخ لتقشير الخضار...

ألقت نظرة أخرى من النّافذة، وعادت إلى المطبخ، أعدّت فطورًا متواضعًا، لبست جلبابها، وضعت منديلا على رأسها، ثمّ وضعت الفطور على طبقٍ، وغطّته بمنديل حريري مطرّز، ونزلت الأدراج بهدوء، قطعت الشّارع، وحينما وصلت، وضعت طبق الفطور بين السيّارتين، وقالت بلطفٍ وحنانٍ:

ـ"الحمد لله على سلامتكما، الباقي يعوضه الله".

نظر الشّابان إلى بعضهما، وأكملت المرأة كلامها:

ـ"لقد تعبتما من الكلام والخصام، تفضلا لتشربا ماءً، وتأكلا طعامًا".

صبّت لهما الشّاي، وعادت من حيث جاءت في خطى متباطئة.

جلس الشّابان حول الطّبق، شربا الشّاي وأكلا الطّعام، وكانا جائعين وغاضبين حقا، تكلّما بهدوءٍ، وتحدثا كثيرًا عن الحياة، وتذكر كلّ واحدٍ منهما ما ينتظره من أشغالٍ وأعباءٍ، تعارفا وتبادلا أرقام الهواتف...

أنهيا فطورهما، نادى على المرأة دون أن يعرفا اسمها، ودون أن يعرفا من أيّ دارٍ نزلت، ثمّ وضعا طبق الفطور على حافة الشّارع، وركب كلّ واحدٍ منهما سيّارته.

لم تسمعهما المرأة لأنّها كانت في المطبخ، وحين انتهت من أشغالها، ألقت نظرة على الشّارع، رأت طبق الفطور، ولم تجد الشّابين، وأرسلت نظرها بعيدا، فرأت السيّارتان تغيبان في زحام الشّارع الكبير برزانةٍ وهدوءٍ.

-10-

قَنّاص اللّحظات

يأتي إلى المقهى الشّعبيّ من أقصى المدينة في أناقته المعهودة، يطلب قهوته السّوداء المضغوطة، ويخرج بعض الأوراق والكتب من محفظته الصّغيرة، يقرأ ما تيسر من الجريدة، وينظر من وراء النّافذة إلى الشّارع، يتأمل ويكتب، يصطاد الأفكار، ويقتنص اللّحظات الإنسانيّة العابرة الّتي لا يراها أحد.

تشبه أناقته أناقة الشّباب الموظفين في البنوك، والّذين يمدون الأوراق والمستندات، من وراء الزّجاج ولا يبتسمون إلاّ حين توقع أو تدفع المال، أو الأطباء الشّباب في اعتدادهم بأنفسهم وزهو وظيفتهم الجديدة.

لكنّ صاحبنا، هادئٌ دائمًا، لا يحرّك ساكنًا، ولا يتحدث مع أحد، يأتي إلى زاويته في المقهى، تلك الّتي تطلّ على الشّارع، وينصرف إلى أوراقه كناسكٍ متعبّدٍ، واضعًا سماعة الهاتف في أذنيه... ويخرج من محفظته اليدوية حزمة أوراق وقلم جميل... ويشرع في التّأمل، ورصد الحركات واللّحظات بعين صقرٍ وصبر قنّاصٍ، وغالبًا ما يأتي صباحًا، أو في ساعةٍ متأخرةٍ من المساء.

لقد أصبح وجوده مألوفًا عند النّادل، وعند بعض رواد المقهى، وبدأ يكثر حوله الكلام:

ـ"تلك الأوراق الّتي يسوّدها، هي تقاريرٌ يوميّة يرفعها لرؤسائه، لعلّه من رجال المخابرات السّريّة؟".

ـ"ربما هو صحفيٌّ، ألا تراه يقرأ الجرائد بكثرةٍ".

ـ"وأين الكاميرا والمسجلة؟".

ـ"لعلّه أستاذ؟".

ـ"لكنّه لا يحمل الكتب المدرسيّة، ولا يصحّح الامتحانات بالقلم الأحمر، كما يفعل بعض

الأساتذة هنا".

ـ"عجيب أمر هذا الشّاب، نعرف كلّ رواد المقهى إلاّ هو".

يقترب منه رجل بدين بمشيةٍ طاووسيّة، وابتسامةٍ مصطنعة، ويجلس على كرسي أمامه:

ـ"صباح الخير أستاذنا، صباح جميل، يبدو أنّها ستمطر".

نظر إليه نظرةً خفيفةً، وقال:

ـ"نرجو ذلك".

وعاد إلى مذكرته، يكتب بحماسٍ منقطع النّظير... كتب حوالي صفحتين ونصف، ثمّ ألقى بما كتبه في سلة المهملات...

كتب فقرة، ثمّ مزّق الورقة، وبدأ صفحة جديدة...

نظر إليه الرّجل البدين مرّة أخرى، وقال بلهجةٍ متعاليةٍ:

ـ"يبدو أنّك لم تعرفني".

فردّ بسرعة:

ـ"لم أعرفك للأسف".

ـ"أنا صاحب المقهى".

ـ"تشرفنا".

ـ"تشرفنا... في ماذا يعمل زبوننا الكريم؟".

وحين لم يجب عن سؤاله، نادى على النّادل، وقال له بلهجةٍ ظاهرها المودة وباطنها الأسى والمرارة:

ـ"قهوة الأستاذ مدفوعة الثّمن".

ـ"لا، شكرا، سأتكلف بدفع ثمن قهوتي".

انصرف من المقهى.

وفي لحظة هدوءٍ، اتجهت أنظارهم إلى سلّة المهملات!

فتحوا المسوّدة الأولى، وقرأ النّادل بصوت مسموع: "جاءت المرأة القرويّة من الرّيف البعيد في صبيحة يومٍ ماطرٍ وعاصفٍ، وصلت إلى بابٍ..."، وفي قائمة الورقة العنوان التالي: "زيارة في يومٍ ماطر".

لم يفهوا طبيعة كتابته وعمله من خلال فقرةٍ واحدةٍ.

وبعد يومين، جاء إلى المقهى على غير عادته، في منتصف النّهار، طلب قهوته على عجل، وأخرج من محفظته اليدوية كتابًا صغيرًا لم يظهر للنادل إلا كلمتين من أسفل غلافه: **"مجموعة قصصيّة"** لكنّه لم يفهم المعنى.

قرأ حوالي ساعة... وهو يؤدي ثمن القهوة تأهبًا للانصراف، قال له النّادل:

ـ"من فضلك، الكلّ مشغولٌ بمعرفة من تكون؟".

ـ"وما نفع ذلك؟".

ـ"الكلّ يريد أن يعرف".

ـ قل لهم: "قناص اللّحظات".

وانصرف بهدوء كعادته، راسمًا على وجهه ابتسامةً خفيفةً، وعلى وجه النّادل علامة استفهامٍ، وابتلعه زحام الشّارع كما تبتلع اللّجة السّاحل.

-11-

أنفـاسٌ ذابِـلةٌ

وصلنا إلى باب العيادة مع العاشرة صباحًا، الصّف طويلٌ وبطيءٌ كسلحفاةٍ في يومٍ ماطرٍ، الأيادي تمسك بالأوراق والملفّات، القلوب واجفة، والعيون تحدّق في الفراغ بحسرةٍ وذبول...

أخذنا مكاننا في الصّف، مدركين أنّنا لن نصل إلى قاعة الفحص إلاّ بعد وقتٍ طويلٍ وجهدٍ جهيدٍ، تراءى لي من خلال زجاج النّافذة ـ في الأفق البعيد ـ جبلٌ أبيض صغيرٌ كأميرٍ على حصانه المحجل يحرس المدينة متّشحًا ببياض السّحب، يهدي العشاق إلى حسن السّبيل، والمدينة كلعبة بلاستكيّة مجسمة في يد طفلة سومريّة غاضبة... البنايات تغرق في ضبابٍ من أسىً شفيفٍ، والشّارع الكبير نهرٌ من السّيارات الهادرة تجري إلى مستقر لها.

وعلى جانب العيادة حديقة صغيرة ذابلة، الموت أفعى تحوم حول المكان، وتلدغ بدم بارد براعم الحياة، وفي الدّاخل كراسي متراصة تحيط بطاولة زجاجيّة بديعة الصّنع، عليها بضع مجلات للدعاية الطّبية، وقنينة ماء، وآنية فخاريّة بها ورود حمراء يانعة وبراقة كأنّها قُطفت للتو.

هل جيء بها من حقول قريتي الجبليّة البعيدة صباحًا؟ كما تجيء أختي كعادتها شاحبة يائسة بلا موعد إلى هذه المدينة كلّ شهر باحثة عن الشّفاء.

وراء مكتب الاستقبال شابة في مقتبل العمر، شقراء فاقع لونها تسرّ النّاظرين، بخفةٍ ورشاقةٍ تستقبل الضيوف الّذين يأتون إلى المصحة كرهًا، وتنتقل بين غرفة الطّبيبة والزّائرين كنحلةٍ بين الأزهار.

سمفونية بيتهوفن "الدّخول إلى الجنة" هادئة لا يفهمها أحد في مستشفى الجحيم الأرضيّ، وسربٌ من الملائكة الطّيبين يدخلون من النّافذة، ويرقصون في الهواء. الألوان متناسقة، والأضواء صافيّة، لكن الصّمت عميق، والهدوء يشي بالموت.

أنا وأختي وشابة بجانبنا على الكرسيّ، تلبس معطفًا ثلجيًا، وحذاءً طويلاً يصل إلى الرّكبتين، وعلى كتفيها ينساب نهرٌ من الشّعر الأسود الرّقراق إلى الخصر، عيناها سوداوان وعميقتان

لكنّهما تشعّان بحزنٍ شفيفٍ، وروحها متعطشة شاحبة، بين الفينة والأخرى تصعد من صدرها النّحيف زفرة حرّى.

نادت السّكرتيرة أختي فدخلت إلى قاعة الطّبيبة بخطى متثاقلة يسربلها الذّبول (هي لا تحب أن يتفحصها الطّبيب، لعقدة الخجل الّتي لم تتخلص منها منذ طفولتها) وبقيت مع الشّابة وجهًا لوجهٍ:

ـ"هل أمك مريضة؟".

ـ"إنّها أختي".

ـ"تشبهك كثيرا، من يراك معها يظنّك ابنها".

ـ"نعم، من يراها يظنّها أمي، رغم أنّها لا تكبرني إلّا بعامين، لقد شاخت بالغمّ والمرض، منذ عامين وهي تأتي على رأس كلّ شهر، زرنا أغلب مستشفيات وعيادات المدينة، ولم يكتشف الأطباء مرضها بعد".

بعد ربع ساعة، خرجت أختي، كانت تحمل في يديها قنينة ماء صغيرة، وملفها الطّبي السّمين بوصفات الدّواء والمواعيد الّتي لم تأت بالفرح بعد، ملفّ سمين لكنّه لا يغني من مرض، شرِبتْ جرعةً وصبّت الباقي في آنية الورد!!

استغربت الشّابة الّتي بجانبي، وكتمت ضحكة يائسة، بينما دوّنت الّتي في مكتب الاستقبال في دفترها ما ليس لنا به علم، أدّينا ثمن الفحص الخياليّ، وكتبت لنا على ورقة صفراء أسماء بعض الأدوية الّتي لا قدرة لنا على شرائها، أوصتني ـ سرًا ـ بمركز الأنكولوجيا في مدينة بعيدة جدًا، وشيّعتنا بابتسامة مصطنعة، عرفت لماذا بدأ شعرها يتساقط، عرفت حينها ما عرفت...!!!

ونحن نهمّ بالخروج، انحنت على آنية الورد، وشمّتها بعمق عطوف، كأنّها تودع الورد لآخر مرّة، شربت جرعة ماء أخرى، دارت بها الأرض وأمسكت بي.

وحين خرجنا سألتها:

ـ"لماذا صببت الماء على الورد وشممته؟".

ـ"حتّى لا تموت ببطء، مثلما أموت أنا... !!!".

ـ"ولكنّها مجرد ورود بلاستكيّة؟!".

ـ"ورود بلاستيكيّة!! لذلك هي بلا روح وبلا رائحة، باردة ومتخشّبة مثلي، الأطباء قساة القلوب، خدّاعون، لا يهمهم إلّا المال، فكيف تكون ورودهم فوّاحة بالعطر والحياة؟".

ـ"لكنّ بعضهم، طيب وحنون".

ـ"بعضهم، بعضهم فقط".

حاولت أن تصبّ ماء القنينة على وردة يابسة في باب حديقة العيادة، لكنّها تفاجأت أنّ الماء نفذ، ثمّ تأبطت ذراعي يائسةً، وتأبطت ذراعها بإحكامٍ.

ومشى الحزن بي ومشيت بها ـ وسط الزّحام ـ في اتجاه الموت بخطىً متثاقلةٍ مستسلمةٍ، وهي في يدي كوردة ريفيّةٍ ذابلةٍ بلا روحٍ، وبلا رائحة!.

-12-

نافذةٌ خَضراء

اشتريت أسطلاً صغيرة، وجلبت ترابًا وبذورًا وزهورًا من قريتي في آخر زيارة لها، وقرّرت أن أصنع حديقةً صغيرةً في نافذة الصّالة من الدّار الّتي لا أشغل منها إلّا بيتًا واحدًا والمطبخ...

هل تعوّض هذه الحديقة المرصوفة في النّافذة حديقة بيتنا القديم؟

تلك الرّمانة المتعانقة مع شجرة اللّيمون، ودالية العنب تمدّ سوالفها إلى كلّ الغرف والنّوافذ، وتتدلّى عناقيدها كثريات الذّهب... كانت مرتعًا آمنًا لكلّ الطّيور، لحمام الدّار واليمام الغريب، وفي مساءات الصّيف كنّا نجلس لنحتسي الشّايّ تحت الظّلال المعتقة كالنبيذ... أما الآن، تلك الدّار أصبحت طللاً من أطلال الوقت، حين أقف على رسمها الدّارس يتملّكني دوار الحنين...

ها هي ذي نافذتي الصّغيرة؛ كأنّي حين أفتحها أزيح غصنًا مثقلاً بالثّمار عن وجه قريتي الحبيبة: رائحة الحبق، والزّعتر الجبليّ، والخزامى... جنّة الرّائحة، نحلة بين الزّهور، زهورٌ ملوّنةٌ في فستانٍ أخضرٍ دافئٍ، تنفذ إليّ منها أشعة النّور وشمس الصّباح، شجيرة ورد أهدتها لي سيّدة جبليّة ذات ربيعٍ آسرٍ... إنّي أهرب من المدينة إلى هذا الحيّز الضّيق والأكثر اتساعًا، ولا أستطيع أن أعيش في بيتٍ دون هواء ونافذة خضراء.

حين تهبّ الرّياح محملة بالنّسيم العليل في المساء، تهبّ عليّ ذكريات وأشواق قريةٍ بعيدةٍ، هواؤها النّقيّ، والعشب الأخضر الفاتن... حاولت مرّة أن أشتري سمكةً صغيرةً وأضعها في زجاجة ماء، فلم أستطع، كدت أختنق.

ومرّة اشتريت من سوق الطّيور طائرًا مغردًا، ووضعته في قفص، ليغني لي قليلاً، ويؤنس وحدتي، لكّني أحسست بسجنه الّذي لا يطاق، كنت أحسّ أنّي أنا المحبوس داخل القفص. وذات صباحٍ خرجت إلى حديقةٍ بعيدةٍ، ووضعت قفصه تحت أشعة الشّمس الدّافئة، سمع أصوات طيورٍ تغرد من بعيد، واستفاق طربًا وفرحًا، وغرّد، لا أعرف هل كان يغنّي أم يبكي، أخرجته، ووضعته على راحة يدي، فانطلق محلّقًا إلى أن غاب في الفضاء الواسع البعيد.

لن أستطيع شراء قطةٍ أو أرنبٍ، فأنا لا أرتاح لمثل هذه المخلوقات، وأخاف على وحدتها بسبب

مشاغلي وسفري الكثير... أمّا الزّهور والنّباتات، فهي الأقرب إلى روحي، وادعةٌ، لا حركة، ولا شغب، ولا صوت. تصبر عليّ إن سافرت أو تأخرت عنها، قد أغيب أسبوعًا كاملاً، فلا أجدها ماتت، قد تصفرّ وتذبل قليلا، وإذا ما سقيتها ليلا، ففي الصّباح تنتعش من جديدٍ.

في المساء، حين أعود من عملي، يطيب لي أن أشرب كأس شاي وأنا متكئٌ على حافة النّافذة الخضراء، وبين مساء وآخر، أراها تعبر بين أغصان وسيقان النَّبتات الصّغيرة المتلولبة على شباك النّافذة، النّافذة الّتي تحجب رؤية الآخرين ولا تحجب رؤيتي، أراها اليوم وكلّ أيام الأسبوع.

عيناىَ عينا نسرٍ، وصبري صبر جملٍ في صحراء الرّبع الخالي، وأنا أنتظر عبورها من الشّارع العام، بعد السّاعة السّادسة مساءً، وقت خروجها لشراء حاجياتها من السّوق الممتاز.

حين تصل إلى الجزار، أكون وراءها، قد لا أشتري لحمًا، لكنّي أسأل عن الثّمن... قد لا أحتاج إلى المشي، وحين أراها أفكر في الدّورة الدّمويّة وفوائد المشي على الصّحة.

صرت أشتري أشياء لا حاجة لي بها، كلّما اشترت اشتريت، حتّى أصبحت الأشياء تتكدّس على رفوف مطبخي في الدّار الّتي أسكنها وحدي... أتبعها، يا لمشيتها، كالسّنابل الّتي تتمايل في حقل قمح بقريةٍ بعيدةٍ.

التقيها في سوق الخضار، في الشّارع، أتبعها أحيانًا، دون أن تحسّ بوجودي، فأكتشف أنّها تسكن قبالتي، في الدّار المقابلة لي، نادرًا ما أراها في نافذتها الّتي ليس فيها غير مزهريّة وحيدة، ونادرًا في المقهى حيث تشرب قهوتها الصّباحيّة على عجلٍ وتنصرف إلى عملها...

وفي العطلة القصيرة السّابقة جلسَتْ بالقرب من مقعدي في زاوية المقهى، تقرأ وتكتب على حاسوبها الجميل والصّغير، قلت لها:

ـ"من فضلك، أنا جارك، ربما ترينني في الإقامة".

ـ"طبعاً، أراك بين الفينة والأخرى، أنت صاحب الحديقة الّتي في النّافذة".

ابتسمتُ في صمتٍ وفرحٍ غير ظاهرٍ.

تقول لي، بعد أن تعثّرت في الكلام:

ـ"هل من مشكلةٍ؟".

ـ"ليست مشكلةً، كلّ ما في الأمر، أنّي سأكون بعد يومين في عطلة، وأريد السّفر إلى بلدي، وفي حاجة إلى من يسقي لي ورودي وزهوري، ما رأيك أن تسقيها لي من النّافذة، أو أترك لك مفتاح الدّار؟".

ـ"للأسف، لا أستطيع، فبعد يومين سأسافر أنا أيضًا ".

ـ"هل عندك عطلة؟".

ـ "نعم".

ـ"في أيّ مجال تشتغلين؟".

ـ"في مجال التّعليم، أستاذة".

ـ"وأنت؟".

ـ"أستاذ".

ـ"نهاية عطلةٍ سعيدةٍ إذًا".

وابتسمنا معًا...

بعد يومين، التقيتها في محطة الحافلات بالمدينة، مثقلة بالحقائب، ساعدتها في حمل أمتعتها إلى الحافلة... ودون حقائبٍ، دون نية سفرٍ، جلست إلى جانبها في المقعد مثلما جلست أمامي في المقهى:

ـ"إلى أين؟".

ـ"إلى الشّمال".

ـ"عطلةٌ صيفيّةٌ ممتعةٌ".

وصلنا إلى قرية على البحر، قلت:

ـ"محطّتي هناك، وأنت؟".

قالت:

ـ"بعد ساعةٍ أصل قريتي".

ـ"نلتقي حين تعودين بعد عطلة الصّيف".

حزينة قالت:

ـ"لن أعود"؟

ـ"خيرًا إن شاء الله".

ـ"حصلت على "الحركة الانتقاليّة"، سأعمل الموسم المقبل في مدينتي، في مؤسسة بالقرب من بيت العائلة".

وأنا أنزل سلّم الحافلة، نظرت إليها، أشارت إليّ مودّعة بيدٍ ناعمةٍ لا خاتم في أصبعها، فتذكرت الحديقة الّتي ستموت حتما في نافذة ذلك البيت الحزين والمزدحم بالفراغ والوحشة القاتلة.

-13-

ضغط الحبّ المرتفع

قرّرت عائلتي الصّغيرة أن نقوم برحلة إلى هذه المدينة الهادئة، والّتي من فرط جمالها وعراقتها يسمّونها "باريس الصّغيرة"، وقد قضيت فيها أجمل وأسوأ لحظات شبابي وعمري...

أعرف هذه المدينة شارعًا شارعًا، دربًا دربًا، ومقهىً مقهىً... ولي فيها ذكريات داميةٌ، عرفت فيها الجوع والحرمان، والأسى الفظيع، والحبّ الّذي يترك ندوبه كما يتركها نمرٌ جائعٌ في جسد غزالةٍ هاربةٍ.

تخرّجتُ من جامعتها كما تخرّج العشرات، وكنت أنوي أن أسكن فيها مدى الحياة، لكنّ القدر رمى بي بعيدًا، وجرت الرّياح بما لا تشتهيه سفني، وبقيت كغريق أتردّد عليها لأملأ رئتي بالهواء الحبيب إلى أن غطسْتُ مرّةً واحدةً، ووجدت نفسي خارج مائها، في الضّفة الأخرى من الحياة!

كنت أمنّي النّفس برحلة إلى مدينةٍ جبليّةٍ، أتسلّق فيها الجبال، وأتتبّع السّواقي، وأملأ رئتي بهوائها الجديد، لكنّ زوجتي وطفلتي الوحيدة، قررتا زيارة هذه المدينة، فما كان عليّ إلّا أن أوافقهما الرّأي.

منذ ثلاثة أيام، ونحن نخرج للمشي والتّنزه على طول طريق "الكورنيش"، ونستمتع بشرب القهوة، ومشاهدة غروب الشّمس في الأفق البحريّ البعيد.

مساء أمس، كنّا نمشي كعادتنا، فإذا بعائلة تظهر لنا من بعيدٍ: رجل وامرأة وطفلهما الصّغير...

ولما اقتربوا منّا، لست أدري كيف نظرت إلى المرأة المقابلة لي، ونظرت إليّ، فأوجعتني نظرتها، احمرّ وجهي، وأحسست بتوترٍ عجيبٍ، وضيقٍ في التّنفس. وأصابني خدرٌ لذيذٌ، سرعان ما تحوّل إلى ألم في الصّدر، ثمّ في القلب، وانتشر ألمه في كلّ الجسد.

ظلّت المرأة واقفة مكانها، دون أيّ حركة.

وضعت يدي على قلبي وهو يخفق كعصفور بلّله القطر، ويحاول الهرب من قفصي الصّدريّ.

قلت دون وعيٍ منّي:

ـ"مريم".

قالت المرأة الواقفة أمامي، وقد تملّكتها دهشة وحيرة عارمة كأنّها تعرضت لصعقة كهربائيّة.

ـ"نعم".

استغرب زوجها، واستغربت زوجتي، ولم ينبسا ببنت شفةٍ.

ونطقت ابنتي بقولة الرّحمة:

ـ"نعم أبي الحبيب، أنا أسمعك، هل أنت بخير؟".

وصاحت زوجتي غاضبة:

ـ"ما بك؟ ... ما بك؟".

استجمعت قواي، وقلت:

ـ"لا بأس... لا بأس... لا تخافا، هو ضغط الدّم المرتفع!".

قالت زوجتي:

ـ"ومتى كنت تعاني من ضغط الدّم المرتفع؟".

أجبت:

ـ"تلك قصّة قديمة، لم أخبرك بها بعد".

وضعت يدي على قلبي، وبالأخرى أمسكت يد طفلتي، وكذلك فعلت المرأة وزوجها وابنها، مخافة أن تتمزّق في جسدينا الشّرايين والأعصاب، أو يهيج علينا البحر وتقوم حرب بين الأمواج، وتابعنا طريقنا في الزّحام دون أن نلتفت، لكنّ القلوب كانت تصرخ في صمتٍ وضغطٍ مرتفع!!!

-14-

هزيمةٌ بين امرأتين

دخل الرّجل إلى المقهى في كامل أناقته، يفوح منه عطرٌ خفيفٌ أخاذٌ، نظر إلى ساعته اللاّمعة، صعد الطّابق الفوقي حيث الكراسي الوافرة والسّتائر الحمراء، والجدار الزّجاجيّ الّذي يسمح برؤية البحر في مشهد رومانسيٍّ جميل.

أخرج هاتفه، وكتب الرّسالة التّاليّة:

ـ"حبيبتي... أنا في انتظارك".

هنيهة، ووصلت المرأة الجميلة، صعدت الأدراج، قبّلت حبيبها الأنيق، وجلست أمامه.

تشابكت اليدان، أشعل الرّجل السّيجارة الأولى، والثّانية، وجاء النّادل بالعصير الأصفر للمرأة، والقهوة السّوداء للرجل... الأيادي تلعب، قبلٌ خفيفةٌ مسروقةٌ من عيون النّاس وعين الكاميرا المثبتة في أعلى الزّاوية.

انتصف العصير في كأس المرأة، وبقيّت قطرتان من القهوة في قعر كأس الرّجل والرّغوة الذّهبيّة على حافة الكأس...

وصلت الرّجل رسالة هاتفية، فقرأ:

"حبيبي... أنا في طريقي إليك".

فاندهش، مالت المرأة نحو الرّجل في محاولة قراءة الرّسالة، فأدخل الهاتف في جيبه، وأسندت رأسها إلى صدره، حاول الرّجل أن ينصرف، حاول أن... وفي لحظة أحسّ بدفء عجيب يسري في أوصاله، ثمّ استسلم لحبائل المرأة المحكمة.

وفي تلك اللّحظة صعدت الأدراج امرأة أخرى، ووقفت على طاولتهما، وكانت امرأة متزنة، لها نظرة ثاقبة وقاسية، احمرّ وجه الرّجل، وتحوّل في رمشه عين إلى أسد من ورق، دارت به الأرض، وضع السيجارة في المنفضة، حاول أن يقول شيئا، لكنّ شفتيه كانتا جافتين، اصفرّت المرأة الجالسة جنبه... وبحكمةٍ ورزانةٍ، وضعت المرأة الواقفة الوردة الّتي كانت تحملها في يدها على الطّاولة، كمن يضع وردة على قبر رجلٍ ميّتٍ، وانصرفت بهدوء، قامت المرأة الأخرى من أمامه، وانصرفت غاضبة.

بقي الرّجل وحيدًا في مكانه، ينظر إلى الوردة الحمراء بين الكأسين، وخيط الدّخان يتصاعد من المنفضة بلا معنى كأسماء ممثلين في نهاية مسلسلٍ سينمائيٍّ سيء الإخراج.

وغابت المرأتان في زحام المدينة، باحثتين عن حياةٍ جديدة.